

الشيخ عن قبول الدعوة بكل لطف ووعده باللقاء في الغد في المحل ذاته فتفارقا على أمل المواجهة في الغد يفكر كل في صاحبه كأنها يعرفان بعضهما من سنين حيث ان هذه البرهة الوجيزة التي قضياها سويا كانت كافية لتمكين عرى التعارف لا بل الصداقة بينهما ولاغرو فان هذا الامر يكثر حدوثه جداً بين الناس وحتى بين الحيوانات عند تجانس الدم والروح

### — الفصل الثالث —

هل يوجد خير أو شر في الحقيقة ؟

أم ان ما نظنه خيراً لنا هو شر للغير والعكس بالعكس

في اليوم التالي في الوقت المعين اقبل صاحبنا الشاب نجيب وجلس على المقعد حسب المعتاد ولم تمض برهة قصيرة حتى حضر شيخنا وبعد تبادل التحية والسلام قال له نجيب والله يا شيخني اني لم اذق مرارة الانتظار مثل الليلة فقد كانت كل دقيقة منها بيوم وكل ساعة بشهر فتبسم الشيخ وقال وهذا ما كان عندي أيضاً ولنعد الآن إلى الحديث من سياق كلامي لك أمس يتضح أنني تركت الديور

وعمرى اثنتان وعشرون سنة وقد بلغت الآن السبعين فما  
وأربعون سنة قضيتها كما ترانى الآن متجولا من بلد الى بلد  
فزرت معظم الاقطار واختلطت بجميع الشعوب من هود  
وهينيين وعجم وعرب وزوج ورحلت أيضا إلى أوروبا  
وشهدت ما يسمونه عظمة المدن الحديث ومن هناك قمت  
الله لي من استصحبني الى أمريكا حيث مكثت ثماني سنوات  
فيحت ونقبت وراقبت فدهشت ولكن دهشتي لم تكن  
لامر جديد وقفت عليه ولو أن أشياء كثيرة يمكن عدها  
جديدة لاختلاف مظاهرها عند الناظر اليها سطحيا بل أن  
دهشتي هي لأنى رأيت وتحققت بأن لاشيء جديد تحت  
الشمس أو بالأعم لاشيء جديد في العالم أجمع فالطبيعة واحدة  
وسننها واحدة تتمشى على أنظمة وخطط ثابتة واحدة والويل  
لمن عارضها فسبحان تلك القوة الخالقة المدبرة الفاتحة فلا  
شيء يخلق نفسه ولا شيء يفنى بل أنه يخرج من الينبوع  
المظيم ويعود اليه ولو اختلفت طرق العودة بالتحول من  
شيء الى آخر حتى ظن بعضهم أن الفناء حاصل مع أن  
الحقيقة لأفناء بل تحول بل رجوع الى الاصل كما ترى فيما بعد

تتصارع الكائنات جميعها بعضها مع بعض سيان في ذلك الجماد والنبات والحيوان تحت تأثيرات شتى وعوامل مختلفة فتتبدل أشكالها وتتغير من حال الى حال مع توالي الزمن ومرور الايام ينظر المرء إلى هذا فاكان منه موافقاً له ولمصاحته وصحته ولراحته عده خيراً وما كان مخالفاً عده شراً مع أنه في الحقيقة لا يوجد غير أو شر إذا نظرنا للمجموع الكلي وللنتيجة القصوى وللأسن الطبيعية

سنة تنازع البقاء سنة طبيعية ولكنها في الانسان تدرجت معه حتى تولدت منها الانانية وعلى مصاحبة الانانية الفردية أو الشعبية أو العمومية الانسانية تكيف الخير والشر ومصائب قوم عند قوم فوائد واذا اردت يا بني امثلة على هذا المبدأ أقول لك اني أنا مثل وانت مثل وما حصل وما يحصل لك مثل وكل انسان وكل حيوان مثل وكل ما في الطبيعة أمثال لذلك إذا حصرتها انحصرت واذا عممتها تعممت . تضعيع أنت محفظة نفودك فهذا شر لك لأنك فقدت شيئاً يمكنك به أن تزيد نعيمك ولذتك وراحتك أن رأساً أو بواسطة أن أدياً أو ماديار ووحياً أو جسمياً

فيجدها غيرك فيكون شرك خيراً للغير . في حقلك بقرة  
تدر عليك لبنا وتفيد ارضك وزرعك وفي الجبل بالقرب  
منك اسد جائع يأتي فيفترس البقرة فيأكلها ويشبع اشباله  
فوت البقرة بعد في العرف الخالي شر عليها وعليك ولكن  
خير للاسد ولاشباله ولكن هل خسرت الطبيعة شيء  
كلا فيه مجموعها توازنها باق . يحترق حي في مدينة فينقاب  
العمار الذي فيه الى حي آخر تحرب بقعة فيتحول ما كان يلزمها  
من الخيرات الى بقعة أخرى فيزداد خير هذه ببلاء تلك .  
تقوم حرب بين أمة وأخرى فتخسر هذه وتفوز تلك  
فشر الاولى خير للثانية ولكن يطغي البحر على ارض غير  
مأهولة فيغمرها وتزلزل الارض زلزالها فتغور جزائر  
وتظهر أخرى ولا تعد هذه الحوادث لا خيرا ولا شرا  
تنقض صاعقة فتسمت شاة لامرأة عجوز فقيرة فيعد هذا  
الامر حادثا جللا وشرا مستظيرا ولكن تولد حيوانات  
شقي مفترسة وغير مفترسة وتعيش في الغابات البعيدة  
وتموت وتنقرض ولا يفتن لها احد فلا يمد وجودها او  
فناؤها لا خيرا ولا شرا . بالقرب من إحدى القرى يوجد

ذئب كاسر يسطو على ماشية الناس فيتماونون على قتله  
ويعدون الفتك به خيرا عظيما ثم يجدون حيوانا نافعا مفيدا  
فيحسب وجوده نعمة . تنفجر عيون ماء غزيرة تجري منها  
انهار وتجف او تتحول من مجاريها الى مجاري أخرى ولا  
اهمية لهذا اذا كانت في بقاع لاناس فيها ولكن يرمي  
بعضهم حجرا في بئر ماء يرتادها الناس فيعده عمله شرا  
يستوجب العقاب . تنبت الاشجار والمزروعات في اراض  
غير مأهولة من الانسان وتزهر وتثمر فيأكل الطير  
والحيوان ثمرها ان كان هناك حيوان او طير او تتساقط  
على الارض بعد نضجها وتتحول الى تراب واسمدة ولا يعد  
هذا لا خيرا ولا شرا ولكن يكون في بستان يوسف  
شجرة تفاح يتطف منها زيد تفاحة فيعده عمله شرا وسرقة  
تستوجب القصاص . يربي الانسان الماشية لياكلها وينتفع  
بلحمها وجلدها وعظمها وبكل ما ينتج عنها ويذهب الصياد  
الى الصيد فيقتنص الحيوانات والطير ويستعملها لما يترآى  
له فيعده عمله خيرا عظيما ولكن اذا سمعت عقرب ولدا او  
لدغت نحلة انسانا او نمد طائر حبة حنطة من بعض حقول

الناس عد هذا العمل شرا . افليس هذا من الغرابة بمكان  
وهكذا مما لا نهاية له . فمن هنا ترى يا بني ان الخير والشر  
ما هو الا زرع ونبت الانانية الانسانية حسب وجهة نظر  
الانسان فيما يترآى له من الفائدة اذ ما معنى تحول الماء من  
جهة الى جهة للماء نفسه او ظهور ارض وغور ارض للارض  
نفسها او سقوط ثمرة من الشجرة او قطفها او اكلها من  
انسان او حيوان للشجرة ذاتها او وجود حيوان مفترس  
او داجن او عدم وجودها هنا او هناك .

فاجابه نجيب وقال يستنتج من أقوالك وبياناتك أنه  
لاخير ولا شر البتة ولكن كيف توفق هذا مع تعاليم جميع  
الاديان وقد اتفقت جميعها على وجود الخير والحث على عمله  
ووجود الشر والنهي عن فعله ؟ فقال الشيخ اسمع يا بني لما  
ترقى الانسان واسس جمعياته الانسانية فعاش قبائل فشموبا  
فأما ورأى ان عوامل كثيرة طبيعية تقاومه منها خارجية  
مثل الحيوانات المفترسة والسامة والقمل في الارض  
والصواعق والامطار والحر والبرد والثلوج والعواصف  
وخلافها ومنها داخلية مثل البغض والحسد وحب الانتقام

والكسل وحب الحصول على جنبي الغير وهلم جرا مما  
شاهده في انفسنا ونعلمه من ذواتنا اراد أن يحتاط للامر  
ويعد العدة لمقاومة ذلك حفظا لتلك الجمعية وتقوية وأتماء  
لها فاقتبس من غريزته الطبيعية ومما شاهده في اجناس  
الحيوانات سننا وطرقا سار علمها ولما ترقى في عقله وزاد في  
توهمه وضعف جسمه لترهفه في المعيشة وكادت الغريزة  
الطبيعية فيه ان تضحل ولم تعد وحدها كافية لوقايتها كما في  
بقية الحيوانات استعاض عنها بروادع وزواجر خيالية  
تصورها للاستعانة بها على حفظه وحفظ روابطه لذا تراه  
في كل نواهيته ومسموحاته لم يقصد سوى مصلحته الخاصة  
او مصلحة الانسانية العامة ان راسا او بواسطة غير ناظر  
الى خلافها البتة. بل أنه اذا نظر لغيره من الكائنات الاخرى  
فان ذلك يكون لتصور فائدة تعود اليه منها فعد نفسه السيد  
المطلق وكل الكائنات ملكا له لا بل عد نفسه الكل في الكل  
حرم القتل نفسه وفي جنسه وابعاه في بقية الحيوانات .  
حرم السرقة في نفسه وفي جنسه وابعاه في بقية الحيوانات  
والاشياء فلماذا اذا يقتل الحيوانات لياكلها وينتفع بما ينتج

عنها ولماذا يحلب اللبن من الماشية فيسرقه من صغارها ويأخذ  
العسل من النحل فيسلبها قوتها . حرم الظلم والاستعباد  
ولكنه يظلم الحيوانات ويستعبدها فيحملها نفسه وامتنعته  
ويستخدمها في قضاء حاجاته حرم الزنا لانه بعد أن ضعفت  
او تلاشت فيه تقريباً الغريزة الرادعة التي تحتم على الحيوانات  
لحفظ كيانها عدم مجامعة اناثها الا في اوقات معينة وهو  
يطلب الجماع دائماً اضربه هذا الافراط ام لا لما اثاره فيه  
توفه وتفننه وتأنقه في ما كله ومشربه وجب عليه ذلك  
التحريم لردعه عما يضر به ويبي جنسه وحفظا لما اختطه  
لجمعيته من العوائد والنظامات وما تولد عنها من الفيرة وحب  
الاستئثار وارضاء لما يدعيه من العدل ائلا يتحمل زيد مثلاً  
تربية ولد هو من صلب عمرو وما يدلنا ايضاً على أن هذه  
السنن ليست طبيعية وان هذه التعميمات هي من وضع  
الانسان انا نرى ذلك الانسان ذاته في كثير من الاحيان  
يشور عليها رغم ما حصنها به من الوعد والوعيد فيقتل بعضه  
بعضاً ويسلب بعضه بعضاً ويسبي حريم بعضه البعض ويخرب  
ويدمر بلاد بعضه البعض كما يشاهد في كل حرب وفي كل

حادثة من هذا القبيل . فمن هنا تستدل على ان الافانية الفردية والافانية القومية والافانية العنصرية والافانية الانسانية هي التي تحرم وتحال حسب ما يترامى لها من المصلحة والمنفعة . يقولون ان الخير والشر معرفتهما محصورة في الانسان فقط مع ان ما يفعله الانسان يفعله الحيوان ويساويهما فيه النبات والجماد فانظر الى الاسماك في الماء والى الحيوانات على الارض والى الطير في السماء تراها تقاتل بعضها البعض وتفتك بعضها ببعض وتأكل بعضها البعض وتتسابق على طعامها وتتسارقه كما يفعل الانسان وتقاتل الانسان وتفتك به كما يقاتلها وتقاتل بعضها وتفتك به وتفتك ببعضها وتتسارقه متاعه كما يسرقها وتسرق بعضها . الا ترى يا بني ان الاسد اذا رأى انساناً أو كبشاً في البرية انقض على ذلك الانسان أو الكبش وقتله واكله كما يفعل ذلك الانسان بالسبع اذا قوي عليه فيصطاده وهذا هو الثعلب يسطو على الدجاج فيأخذ منها ما يطيب له وهذه هي الدجاج ايضا تنقض على الحشرات في الارض والديدان فتأكلها وتفعل بها كما يفعل الثعلب . ما الفرق يا بني

بين سارق يهاجمك فيسرق مقتناك وبينك أنت تجد خلية  
نحل فتشتار عسلها وبين ذئب يهجم على طفلك أو شاتك  
فياخذها وبينك أنت تجد عش طير فتلتقط صغارها ما  
الفرق يا بني بين جار يسرقك الفاكهة وبين الطير والحيوان  
تفعل فعل ذلك الجار. الا ترى ايضا ان ما فعله هذا الجار  
تفعله ايضا تلك الشجرة الغير المثمرة أو الحشائش البرية التي  
تنبت بين تلك الفاكهة فتظلل عليها وتأخذ من نمو ارضها  
فتقلل من حملها ولربما ايستها. ما الفرق يا بني بين شعوب تدير  
على بمضها حروبا طاحنة تميم الولد وتخرب الديار وتذهب  
بالزروع والضرع وبين عاصفة تثور فتقتلع الاشجار وتجرف  
الامطار جميع ما فوق اليابسة فتصبح البلاد قاعا صفصفا أو  
زلزال يحدث فتغور الارض بين عليها من حي أو نبات أو  
جماد ويصبح عاليها أسفلها وتندثر جميع معالم ما كان كأنه لم  
يكن. وما الفرق أيضا يا بني بين عصابة تدخل احدى القرى  
فتقتل وتسبي وتسرح وتمرح وبين وافدة من ميكروب  
فقال تدخل فى الاجساد وتفعل فعل تلك المصابة . افلا  
ترى ان جميع هذه الافعال ولو اختلفت شكلا وفاعلا هي

في الحقيقة واحدة تساوت في عملها الممالك الثلاث الحيوان  
والنبات والجماد. فهذه هي ايضا الحيوانات وفيها الحقد  
والبغض والغيرة والغضب كما في الانسان وتؤثر فيها المادة  
كما تؤثر فيه ففيها البري وفيها الداجن يخاف الذئب من  
الاسد كما يخاف الانسان ويحقد الجمل على من آذاه كما يحقد  
الانسان فمن هذا يتضح ان الخير والشر عامان يتساوى  
فيهما وأمام فعلهما جميع ما في الكون فإهما الا مظهر من  
مظاهر التصارع السلبي والايجابي ولم يكيفا بالخير والشر  
الا حسب تعريف المصلحة الانسانية

في البدء ابتداء التنازع بين الاحياء على القوت والسكنى  
فأخذل الضعيف وفاز الاقوى وبدأ الكفاح والعراك بينهما  
ومن هذا الكفاح تولد الحقد والغيرة والحسد وحب النار  
والاغتصاب وماشا كل لان الفائز أحب أن يحتفظ بما فاز به  
وليستزيد منه والمغلوب أراد المدافعة وأرجاع ما أخذ منه  
والتميل بما فعل الغالب فتأصلت العداوة وأصبح القوي يحاذر  
من الضعيف والضعيف من القوي فان الدية مشلا وهي  
تطلب السكنى في أحسن المغائر كان الانسان يطاردها

ويزاحمها عليها فيقاتلها وتقاتله إلى أن يجلو أحدهما الآخر عنها  
فأصبحت تنفر منه وهو ينفر منها وما يقال عن الدببة يقال  
عن بقية الحيوانات التي بينها وبين الانسان عداوة فإنه زاحمها  
في الاصل إما على قوتها أو سكنها أو أنه ناصبها العداوة  
طلباً لراحته لمضايقتها له في أمر ما أو أنه أراد الفتك بها  
ليقتات بها حتى تأصلت العداوة في الفريقين بتوارثها الاحفاد  
عن الاجداد فهي والحال هذه قد نبئت عن الانانية لان  
الانسان اذا كان قد عادى الذئب مثلاً فإنه انما عاداه ليس  
لانه ذئب بل لان الذئب سابقه على قوته أو أفاقه في راحته  
أو سارقه متاعه وهذه العداوة دائمة طالما الانسان يشعر  
بمقدرة الذئب على أذيته حتى اذا حل العجز وجاء دور المنفعة  
تحولت العداوة إلى الرأفة والمطاردة إلى التأمين كما يرى ذلك  
في حدائق الحيوانات حيث يحميها ويعولها ويسهر على راحتها  
وهكذا تتجلى الانانية الانسانية في كل شيء كما أنها تتجلى  
أيضاً بأوضح أشكالها ومقاصدها في جميع ديانات الانسان  
ومعبوداته فإنه لم يدن لشيء ولم يعبد شيئاً الا ما تصور منه  
القدرة على أذيته فعبدته تملقاً ودفعاً لضرره أو ما تصور منه

النفع فدان له استدراكاً لنعمه

فسأل نجيب الشيخ فقال لقد أقنعتني يا شيخ بهذا البيان  
ولسكني استوضحك عن هذا الامر . اليس للانسان وقد  
ترقى كثيراً وتدرجت معارف بعضهم إلى حد بعيد في كل  
العلوم والاختراعات والابتكار والتصوير أن يجد طريقة بها  
يمكنه أن يكيف حاله على قاعدة أخرى اعدل من هذه تفيده  
ولا تضر بغيره أن من جنسه أو من الحيوانات الأخرى  
وتوافق ما يدعيه من الرقي في العقل والعدل والمعرفة فلا يناقض  
نفسه بنفسه وقوله بعمله ويوجد له حياة أهدأ وأهنأ حيث  
أنه بالحق ليست لهذه الحياة مها طالت قيمة ما تستلزمه من  
المشاق والآلام ان نفسية أو جسدية . فأجابه الشيخ وقال  
إن وقت الذهاب قد حان ويكفيك الآن ما قد سمعته فتأمل  
به فمؤعد الجواب على ما سألت غداً فالسلام عليك والى

الملتقى